كتاب "التطفيل " للخطيب البغدادي وعلاقته بالمرحلة الكلامية في النثر العربي في ضوء تأثره بأدب الجاحظ

الدكتور/ حسام الدين محمد حسن سليم

دكتوراه في الأدب العربي من كلية دار العلوم جامعة الفيوم

الوظيفة : مدرس بالتربية و التعليم

جادت قريحة "الخطيب البغدادي"([1]) مؤرخ القرن السابع وأديبه المتميز بمؤلفات أدبية منها : كتاب البخلاء وكتاب التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم.

إن ما ألفه الخطيب البغدادي يرنو إلى القرن الثالث الهجري ، ذلك القرن الذي شهد "الجاحظ"([2]) يؤلف كتاب البخلاء وكتاب الطفيليين ؛ ومن ثم فإن النظر في أدب الخطيب البغدادي لا يكون إلا من خلال تلك الوشائج التي تربطه بأدب الجاحظ ، وقد مثل أدب الجاحظ قمة مرحلة في النثر العربي هي المرحلة الكلامية ؛ يقول الدكتور سعيد منصور : " **أما مرحلة الجاحظ من بين المراحل المختلفة في تاريخ النثر العربي وتطوره ، فهى المرحلة الكلامية ؛ وذلك لما أفاده الجاحظ من علم الكلام، وازدهار الفكر الاعتزالي وفلسفته أيضًا ، وتزويد النتاج الأدبي بكل ما استغلّه الجاحظ من طرائق الجدل والمناظرة والاحتجاج ، واعتبار للشيء وضده في وقت واحد معًا ، وغير ذلك من الأصول الكبرى التي أقام عليها فكره وأدبه واستعان بها في أساليبه الفنيّة ؛ ليفتح بها مجالات في النثر الأدبي خلال القرن الثالث الذي شهد قمة أعماله ، بما لم يشهده النثر العربي خلال القرنين السابقين** "([3]).

---

[1] – الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي ، المعروف بالخطيب ، أحد الأئمة المشهورين المصنفين المكثرين ، كان من الحفاظ والعلماء ، وبه ختم ديوان المحدثين ، وصنف قريبًا من مائة مصنف ، ولد في سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ، وتوفي يوم الاثنين سنة ثلاث وستين وأربعمائة ببغداد . ترجمته وأخباره في : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس (دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣) الجزء الأول ، ص ٣٨٤ : ٣٩٦ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (دار صادر ، بيروت) المجلد الأول ، ص ٩٢، ٩٣ .

[2] – هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى ، أديب معتزلى ، كان بديع التصنيف وله مؤلفات متنوعة ككتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين ورسائل مختلفة ، وقد مات فى المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين، ترجمته وأخباره في : الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧) الجزء الثانى عشر، ص ٢٠٨ : ٢١٣، المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (دار الكتاب العالمي) المجلد الثاني ، ص ٥٦٨ : ٥٦٩ ، معجم الأدباء لياقوت الحموى، الجزء الخامس ، ص٢١٠١:٢١٢٢، الشهرستاني، الملل والنحل ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران (مطبعة الأزهر ، الطبعة الأولى) ص ١١٢ : ١١٥ .

[3] – سعيد حسين منصور ، دراسات في النثر العباسي في القرن الثالث الهجري ، (٢٠٠٦) ص ١٥٩ ، ١٦٠.

بعلم الكلام وصل الجاحظ بالنثر العربي إلى مرحلة جديدة هى المرحلة الكلامية ، وهي مرحلة لها خصائصها وسماتها ؛ هي مرحلة الاحتجاج والجدل والناظرة ، هي مرحلة المحاورة التي تسبر غور النفس الإنسانية ، هي مرحلة المحاسن والأضداد ومدح الشيء وذمه ، هي مرحلة الإعلاء من شأن الفكاهة والضحك كي لا تمل النفس من الجد.

لقد درست الدكتورة فدوى مالطي " **الفكاهة والبناء في حكايتين من حكايات البخلاء : الجاحظ والخطيب البغدادي** " وانتهت إلى نتيجة عبرت عنها قائلة : "**ومع معرفتنا بالاختلافات البارزة بين كتاب البخلاء للجاحظ وذلك الذي كتبه الخطيب فلا يوجد سبب للافتراض بأن كتاب التطفيل للخطيب قد اعتمد على الكتاب الخاص بسلفه** "([1]).

نظرت الدكتورة فدوى فوجدت اختلافات بين كتاب البخلاء للجاحظ وكتاب البخلاء للخطيب ؛ فانتهت إلى نتيجة تقول بانقطاع الصلة بين مؤلفات الرجلين ؛ فلا علاقة بين بخلاء الخطيب وبخلاء الجاحظ لما بين الكتابين من اختلافات ؛ وتأسيسًا على ذلك فإنه لا علاقة بين كتاب التطفيل للبغدادي وكتاب الطفيليين للجاحظ ، ذلك الكتاب الذي بخل به الزمن فأخفاه .

ثم نظرت الدكتورة فدوي نظرة أخرى، عبرت عنها قائلة : " **ففيما يختص بكتاب التطفيل فهو يحتوي على ستة وعشرين فصلاً ، كما يشتمل على مقدمة ، وهذه المقدمة القصيرة المثيرة للاهتمام البالغ يتوفر بها عدد من الصفات الجاحظية** "([2]). لقد ظهر إذن أثر الأدب الجاحظي في أدب الخطيب واضحًا جليًا .

إن الحديث في هذا المقام هو حديث عن علاقة أدب الخطيب بأدب الجاحظ الذي يمثل قمة المرحلة الكلامية من خلال دراسة علاقة كتاب التطفيل للخطيب بكتاب البخلاء للجاحظ؛ ذلك أن النظرة في الكتابين تخبر بأن ثمة علاقة بين التطفيل للخطيب وبخلاء الجاحظ ، وأن بخلاء الجاحظ قد جمع سمات المرحلة الكلامية في النثر العربي.

---

[1] – فدوى مالطي ، بناء النص التراثي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥) هامش صفحة ٦١.

[2] – المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(١)

براعة الاستهلال ومنهج التأليف

يستهل الجاحظ البخلاء قائلاً : " **تولّاك اللهُ بحفْظِه وأعَانك على شُكرِه ووفَّقك لطَاعتِه وجَعَلك مِن الفَائزين برحمَتِه ذكرتَ ـ حفظك اللهُ ـ أنّك قرأتَ كِتَابي في تصنيف حِيل لصوص النَّهار وفي تَفصِيل حيَل سُرّاق الليل وأنّك سددت به كلّ خَلَل وحصَّنت به كلّ عَورة وتقدمتَ ـ بما أفَادَك من لطَائف الخُدع ونبَّهك عليه من غَرَائب الحِيل ـ فيما عسى ألَّا يَبلغه كَيد ولا يحوزه مَكر وذكَرت أن قدر نَفعه عَظِيم وأنَّ التَّقدم في درسِه واجِب ، وقلتَ: اذكر لي نَوادر البُخلاء واحتجَاج الأشحّاء**"([1]).

يفتتح الجاحظ مؤلفه بالدعاء محققًا براعة الاستهلال ؛ يدعو لمخاطبه بأن يتولاه الله بحفظه ويعينه على شكره ، ويوفقه لطاعته ، ويجعله من الفائزين برحمته .

هذا هو شأن الجاحظ في مؤلفاته ، إنه يستهلها بدعاء ؛ يدفعه إليه إيمان عميق وشغف بشكر الخالق ، ورغبة أكيدة في طاعته .

إنه ببراعة استهلاله تلك ، وبهذا الجو الديني ، يدعو مخاطبه إلى أن يسلك سبيله في الطاعة والشكر جاذبًا إياه إلى قراءة مؤلفه .

وبعد الدعاء تأتي مخاطبة الصاحب ؛ ليأتي تأليف كتاب البخلاء إجابة لسؤال وامتثالاً لطلب .

وعن مضمون الكتاب الذي جاء إجابة لسؤال وامتثالاً لطلب ؛ يقول الجاحظ إنها في "**نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء**" ، لذا فهو يخاطب صاحبه قائلاً " **ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشيَاء: تبين حُجَّة طَريفة أو تعرّف حيلة لَطِيفة أو استفَادة نَادرة عجِيبة**" ([2]).

هذا هو المذهب الكلامي ، وهذه هى روح الجدل والتزيين والتقبيح ؛ يقول الدكتور سعيد منصور:" **وهكذا نجد الحجة والاحتجاج ، وإقامة الموضوع في أكثره على هذه الاحتجاجات مما**

---

[1]- الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الجاجري (دار المعارف ، الطبعة الثامنة) ص ١ .

[2]- المصدر السابق ، ص ٥ .

هو وليد روح الجدل أو مدحه أو ذمه ، وإثارة الدعاوى ، والرد عليها في وقت واحد معًا ، على نحو ما هو معروف في الفلسفة السوفسطائية التي كان لها تأثيرها في عصر الجاحظ "([1]).

ويأتي الخطيب البغدادي فيستهل مؤلفه في "التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم" بما استهل به الجاحظ البخلاء ؛ فيقول : " **شغَلنَا اللهُ وإيَّاك بطَاعتِه وتولَّاك بحفِظِه وحيَاطَتِه . كنتَ ذكرتَ لي أنَّه انتَهى إليك حِكَايةُ خَبَر طفَيلي جَرَت له مُحَاورة مع "نصر بن على الجهضمي"**([2]) **وأنَّك أحبَبتَ الوقُوفَ عليه بلفظِه وآثَرتَ النَّظر فيه على وجهِه ؛ فأعلَمتك وقُوع الخَبر إليَّ بإسنادِه ولم يتسِع الوَقت لسيَاقِة وإيرَاده ، فسألتنى كَتبه لك وإنفَاذه إليك ، وأن ألحق به وأضُم إليه مَا بَلَغَني من حكَايات الطُفَيليين وأخبَارِهم ونَوادر كلامِهم وأشعَارِهم ، ولقَد كَانَ الاشتغَالُ بغَير ذَلك أحرى والتّوفّر على سواه أجْدرَ و أَولى غير أنِّي رأيتُ إسعَافَك بطلبَتك وإجَابتك إلى مسألتِك مِن الأمورِ اللازِمة وأحَد الحقُوق الوَاجِبة لتَأكد حرمَتك وصَفَاء خلّتك ، وصِدق مَوَدَّتك ، وقَد جَمَعتُ لكَ في هذا الكِتَاب مِــن ذكــر التَّطفيل ومعنَاه، و أوَّل مَن نُسِب إليه وعُرِفَ به ، وبَيَان حُكمه وحَمده وذمِّه ، وأخبَار أهلِه الموسُومين به ما يستَروح قَلب العَالِم إليه مِن ثقل الجد "**([3]).

---

[1] – سعيد حسين منصور ، دراسات في النثر العباسي في القرن الثالث الهجري ، ص ١٦٥ .

[2] – هو نصر بن علي بن صبهان بن أبيّ ، الحافظ العلامة الثقة أبو عمرو الأزدي الجهضمي البصري ، حدث عن : يزيد بن زريع ، ومعتمر بن سليمان ، ونوح بن قيس الحداني ، وعبد ربه بن بارق ، ويحيى بن أبي زائدة ، وعبد الأعلى بن عبد الأعلى ، وسفيان بن عيينة ، ودرست بن زياد ، وبشر بن المفضل ، والحارث بن وجيه ، وعبد العزيز العمي ، وعبد العزيز الدراوردي ، وعمر بن علي ، وابن علية ، وعيسى بن يونس ، ، وخلق كثير ، أحباره في : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وصالح السمر (مؤسسة الرسالة ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٦٦٩) الجزء الثاني عشر ، ص ١٣٣ : ١٣٦ .

[3] – الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، (مكتبة القدسي ، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣) ص ٩ ، فقد اعتمدت في "التطفيل" طبعة حسام الدين القدسي التي طبعها عن نسخة المرحوم الشيخ عبد القادر بدران مع المعارضة بصورة نسخة الخزانة التيمورية العامرة؛ ولم أعتمد طبعة دار ابن حزم ١٩٩٩، التي اعتنى بها بسام عبد الوهاب الجابي ؛ ذلك أن طبعة حسام القدسي، ١٩٨٣، كانت أكثر صحة و حرصًا على سلامة النص وتمامه ، و مازال تطفيل البغدادي يطلب تحقيقًا علميًا دقيقًا.

هذا هو قول الخطيب ؛ إن ما شرع ينجزه في مستهل كتاب التطفيل ينبثق من رحم الفن الجاحظي والمرحلة الكلامية في النثر العربي التي تسنم الجاحظ ذروتها وبلغ فيها المقام الأعلى.

إنه يستهل مؤلفه بمقدمة ، ويستهل المقدمة بما استهل به الجاحظ البخلاء ، يستهلها بالدعاء لمخاطبه ، وهو لا يدعو لمخاطبه إلا بما دعا به الجاحظ ، إنه يدعو له بأن يتولاه الله بحفظه ، ويشغله بطاعته.

ويثني الخطيب بمخاطبة الصاحب ؛ والخطيب يخاطب صاحبه أو مخاطبه خطابًا يضارع خطاب الجاحظ لصاحبه في البخلاء ، لقد ود هذا المخاطب الذي أتى في مقدمة مؤلف البغدادي أن يولف له البغدادي كتابًا في الطفيليين وأخبارهم ونوادرهم وكلامهم وأشعارهم ، وقد أجابه البغدادي إلى طلبه ، وأصبح كتاب التطفيل وليدَ إجابة لطلب كما كان البخلاء إجابة لطلب .

وقد جمع الخطيب كتابه " من ذكر التَّطفيل ومعنَاه، و أوَّل مَن نُسِب إليه وعُرِفَ به ، وبَيَان حُكمه وحَمده وذمِّه ، وأخبَار أهلِه الموسُومين به ما يستَروح قَلب العَالِم إليه مِن ثقل الجد". لقد جمع أخبار الطفيليين ، وتكلم عن التطفيل وحمده وذمه.

ذاك هو ما فعله الجاحظ مع البخلاء ، وذاك هو المذهب الكلامي الذي فتح الجاحظ به الطريق لمرحلة جديدة في النثر العربي .

(٢)

الجـــــد والهـــــزل

يقول الجاحظ على لسان مخاطبه في مقدمة البخلاء : " **وقلتَ : اذكر لي نوادر البُخَلاء واحتجَاج الأشحَّاء ، وما يَجُوز من ذلك في بَابِ الهَزلِ ومَا يجُوز مِنه في بابِ الجد ؛ لأجعَل الهزلَ مستراحًا والرَّاحة جمَامًا ؛ فإنَّ للجدّ كدًّا يمنع مِن معَاودته ولا بدَّ لِمن التَمَسَ نفعَه مِن مُراجعتِه** "([1]).

[1]- الجاحظ ، البخلاء ، ص ١ .

في الكتاب يقف الهزل بجوار الجد لتتحقق الراحة ويتولد النشاط ؛ ويكون الضحك واللهو؛ يقول الجاحظ في مقدمته : **"وأنا أزعمُ أنَّ البُكاءَ صَالِحٌ للطَّبَائِع ومَحمُودُ المغبّة إذا وافَقَ الموضع ولم يُجَاوز المقدَار ..... فمَا ظنَّكَ بالضّحك الذي لا يَزَال صَاحبُه في غَايةِ السُّرور إلى أن ينقَطعَ عنه سَببه ولو كَانَ الضِّحكُ قبيحًا مِن الضَّاحِك ، وقبيحًا من المُضحك لما قِيلَ للزَّهرةِ والحبَرة والحي والقصر المبنيِّ : كأنَّه يَضحك ضَحِكًا. وقد قال الله جل ذكره:** ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[1] ، **فوَضَعَ الضَّحِك بحِذاء الحَيَاة و وضَعَ البُكاءَ بحِذاء المَوت، وإنَّه لا يضيفُ الله إلى نفسِه القَبِيح ، ولا يمنُّ على خَلقه بالنَّقْص. وكيف لا يكونُ موقِعُه مِن سرُور النَّفس عظيمًا ومن مصلحة الطّباع كبيرًا وهو شيء في أصلِ الطّبَاع وفي أسَاس التَّركيب. لأنَّ الضَّحك أوَّل خَير يظهرُ مِن الصَّبيّ ، وبه تطيبُ نَفسه وعليه ينبُت شَحمه ويَكثر دمّه الَّذي هو علّة سروره ومادة قوّته..... وقد ضَحك النَّبيّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ومزَح، وضَحك الصَّالِحون ومَزحوا..... وللضحك مَوضع وله مقدَار، وللمَزح موضعٌ وله مقدار متى جازهما أحد وقصَّر عنهما أحد صَارَ الفَاضلُ خطلاً والتَّقصير نقصًا؛ فالنَّاس لم يعِيبوا الضَّحك ألا بقدر ولم يعيبوا المَزح إلا بقدر ومتى أريد بالمَزح النّفع ، وبالضّحك الشيء الذي له جُعل الضّحك ؛ صار المَزحُ جِدًا والضّحك وقارًا "**[2].

يضم البخلاء بين دفتيه إذن الجد والضحك ؛ ذلك أن المؤلِّف وجد أن الضحك ظاهرة نفسية تصدر عن الطبيعة البشرية التي تسأم حياة الجد فتلتمس في الضحك ترويحًا عن نفسها، وتنفيسًا عن آلامها ، وتسعى من خلاله إلى الهروب من الواقع الذي يثقل كاهلها .

وقد أخذ يحتج للضحك مدللاًعلى حسنه وجلاله ، وهو يحتج بالقرآن الكريم وبسيرة الرسول والصالحين .

ويأتي الخطيب البغدادي في مقدمة التطفيل ليقول :

---

[1]- سورة النجم ، الآيتان (٤٣ ، ٤٤) .

[2]- الجاحظ ، البخلاء ، ص ٥ : ٧ .

"وقد جَمَعتُ لك في هذا الكِتَاب من ذكر التَّطفِيل ومعنَاه و أوَّل مَن نُسِبَ إليه وعُرِفَ به وبَيَان حُكمه وحَمده وذمّه وأخبَار أهلِه الموسُومين به ما يَستروح قَلب العَالِم إليه مِن ثقَلِ الجدّ ويتروح خَاطرة بالنَّظرِ فيه مِن دَوام الدَّرس والكدّ ؛ وقد قَالَ "علي رضى الله عنه"(١) : إنَّ هذه القُلوبَ تملّ كلمَا تَملّ الأبدَان فـابتَغوا لهـا طرَفَ الحِكمة ، وقَالَ "قسامة بن زهير"(٢): روِّحوا القُلُوب تَعي الذِّكر، و جَاءَ عن رسول الله ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ مِن الرُّخصة فـي شبيه هذا المعنى .... عن "حنظلة"(٣) الكـاتب أنَّ النَّبي ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ذَكَرَ الجنَّة والنَّار وكنّا كأنا رأى عَين؛ فخرجتُ يومًا فأتيتُ أهلى فضَحكتُ معهم ؛ فوقَعَ في نَفسى شيء ؛ فلقيتُ "أبا بكر"(٤) فقلت : إنِّى قد نافقتُ ؛ قَالَ : وما ذاك؟ فقلتُ: كنتُ عند النّبي ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ فَذَكَرَ الجَنَّة والنَّار فكنَّا كأنا رأى عَين

١- هو أبو الحسن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة ، أسلم قبل الهجرة النبوية وكان أول من أسلم من الصبيان، وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان إلا غزوة تبوك فإن رسول الله خلفه على أهله ، وهو رابع الخلفاء الراشدين، بويع له سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، ولم تصف له الخلافة ، وقتل يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين، ترجمته وأخباره في : عز الدين بن الأثير الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد (دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان) الجزء الرابع ، ص ٨٧ : ١١٧ . ابن العمراني ، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي (دار الآفاق العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩) ص ٤٨. الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٢) الجزء الرابع ، ص ٤٢٧ : ٥٧٦ .

٢- قسامة بن زهير المازني، وقد ذكر عمر بن شَبّة في أخبار البصرة أنه كان ممن افتتح الابلة مع عُتبة بن غزوان، وكان رأسًا في تلك الحروب، وله حديث مرسل، أخباره في : العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان) المجلد الثالث ، الجزء الخامس ، ص ٢٧٦ .

٣- هو حنظلة بن الربيع ، وقيل ابن ربيعة ، ويقال حنظلة الأسدي والكاتب لأنه كان يكتب للنبي ، ترجمته وأخباره في : عز الدين بن الأثير الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، الجزء الثاني، ص ٨٤ ، ٨٥ .

٤- هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي التيمى، أبو بكر الصديق ، هو أول الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وصاحب النبي ورفيقه يوم الهجرة ، وخير الناس بعد الأنبياء والرسل ، ترجمته وأخباره في : عز الدين بن الأثير الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، الجزء الثالث، ص ٣١٠: ٣٣١ .

فخرجت ، فأتيتُ أهلي فضحكتُ معهم فقالَ أبو بكر : إنا لنفعل ذلك ؛ فأتيتُ رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ فذكرتُ ذلك له ؛ فقالَ " ياحنظَلة لو كُنتم عِند أهلِيكم كما تَكُونُون عِندى لصَافَحتكم المَلائِكةُ على فرشِكم وفي الطَّرِيق ياحنظلة سَاعة وسَاعة " ولم تَزل أفَاضِل النَّاس وأكَابرهم تعجبهم الملَح ..... لأنَّها جمَام النَّفس ومستَراح القَلب "([1]).

إن هذا النص يولي وجهه شطر النص الجاحظي ليسير على نهجه ؛ ففيه احتذاء لتعبير الجاحظ ، وفيه ما جاء في النص الجاحظي من حديث عن حقيقة الضحك وأهميته والاحتجاج له .

وإذا كان الجاحظ قد احتج للضحك وحسنه بضحك النبي والصالحين فإن الخطيب أتي بالدليل على قول الجاحظ فروى حديثًا دار بين الصحابة ورسول الله .

دافع الجاحظ عن الضحك واتخذ من سمة فنية زين بها البخلاء ، وجا الضحك في البخلاء بالجمال فلا فحش ولا إقذاع ؛ من ذلك قوله : **" وَمِن أَعَاجيبِ أهل مَرو ماسَمعناه من مَشْيختنا على وجه الدهر ، وذلك أنّ رجلاً مِن أهلِ مرو كان لا يزال يحجُّ وَيتَّجر ، وَيَنْزِل على رجلٍ مِن أهلِ العِرَاق ، فيكرِمُه وَيكفِيه مؤنته . ثُم كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُول لذلك العراقىّ : لَيتَ أنى قَد رَأَيتك بمرو ، حتَّى أُكَافئك ، لقَدِيم إحسَانك ، وما تجَدّد لى مِن البِرّ فى كُل قَدمة . فأمّا ههُنا فقد أَغناك الله عنى . قال : فعرضتْ لذلك العراقىّ بعد دهر طَويل حاجةٌ فى تلك النَّاحية ، فكَان ممَّا هوَّن عليه مكابدة السَّفر ووَحشة الاغتراب مكانُ المروَزىّ هنالك . فلمَّا قَدِم مضى نَحوه فى ثيابِ سَفره وفى عمامتِه وقَلنسُوته وَكِسَائه ، ليحطَّ رحلَه عِنده ، كما يَصْنَع الرَّجلُ بثقتِه وَمَوضِع أُنسه . فلمَّا وجده قَاعدًا فى أصحابِه ، أكبَّ عليه وَعَانقه ، فلم يره أَثبته ، ولا سَأَل به سؤال مَن رآه قط . قَالَ العراقىُّ فى نفسِه : لعلّ إنكاره إيَّاى لمكان القِناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مُساءَلته ، فكان له أَنْكَر . فَقَال : لعلّه أن يَكُون إنّما أتى من قِبَل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وَجَدَّد مُساءَلته ، فوجده أشدَّ**

[1] – الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، ص ٩ ، ١٠.

ما كان إِنْكَارًا . قال : فلعله إنما أتى مِن قبل القلنسُوة. وعلم المروزىُّ أنه لم يبقَ شيء يَتَعَلّق به المُتَغَافل وَالمُتَجَاهل ، فَقَال : لو خرجتَ من جِلدك لم أعرفك "([1]).

لا يكاد المرء يقرأ هذا النص ، إلا وتهتز أوتار القلب ضحكًا ، مسببات الضحك تملأ النص ، وتسري فيه ؛ تبدأ بإنكار بعد دعوة ، وتثني بما يقوم به ذلك العراقي ليظفر بالضيافة ، وتختم بـ(لوخرجتَ من جِلدك لم أعرفك) .

لقد أضحي الضحك عند الجاحظ وسيلة فنية ، تؤدي خدمة جليلة للنفوس ، وتجذب المتلقي إلى متابعته ومتابعة هؤلاء البخلاء .

لقد تلقف الخطيب البغدادي هذه الوسيلة الفنية من الجاحظ ،؛ فجاء في كتابه التطفيل : " **جاء طفيلي إِلَى عرس ، فمنع من الدخول ، وَكَانَ يعرف أَن أَخَا للعروس غائب ؛ فَذَهَبَ ، فأخذ ورقة كاغد وطواها وسخاها وختمها ، وليس فِي بطنها شَيء ، وجعل العنوان (من الأخ إِلَى العروس) وجاء ؛ فَقَالَ : معى كتاب من أَخى العروس إِلَيْهَا ، فأذن لَهُ ؛ فدخل ، ودفع إليهم الكتاب ؛ فَقَالُوا : مَا رأينا مثل هَذَا العنوان ، لَيْسَ عَلَيْه اسم أحد ! فَقَالَ : وأعجب من هَذَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي بطن الكتاب ولا حرف واحد ، لأنه كَانَ مستعجلاً ، فضحكوا منه ، وعرفوا أَنَّهُ احتال لدخوله ، فقبلوه**"([2]).

يتولد الضحك هنا من حيلة ذاك الطفيلي ، تلك الحيلة التي مكنته من هدفه ، وأضحت موقفًا فكاهيًا يثير ضحك من انطلت عليهم الخدعة ، ويثير ضحك المتلقي .

---

[1] – الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٢ .

[2] – الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، ص ٤٧ ، ٤٨.

الجـــدل والاحتجـــــاج

الجاحظ من أئمة الاعتزال ، أحاط علمًا بأصول هذا العلم ، وجرى على سمت المتكلمين والفلاسفة ؛ فعرف أدبه الجدال وآدب المحاجاة ، ومدح الشيء وذمه ، وآية ذلك ما يظهر في كتاب البخلاء؛ فـ"**معظم بخلاء الجاحظ "أصحاب منطق وجدل ، يدافعون عن مذهبهم في البخل كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ، ويجادلون من يعيب عليهم تقتيرهم ، كما يجادل المعتزلة أصحاب الفرق الأخرى**"([1]).

وجاء الخطيب البغدادي ذلك الرجل الذي لم يكن ينشط للكلام والجدال بكتابه التطفيل منتهجًا نهج الجاحظ في الكلام والجدال والمناظرة و مدح الشيء وذمه .

فمن الحجج التي أتت في كتاب البخلاء للجاحظ ، الحجة التي أتى بها "ابن التوأم" ليدافع بها عن مذهبه في البخل قائلًا : " **وأنتُم ترَون أنَّ المجدَ و الكرمَ أن أفقِر نفسي بإغنَاء غَيري، و أن أحوطَ عِيال غَيري بإضاعة عِيالي ..... وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾**([2]) ، **وقال: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو﴾**([3]). **فأذِنَ في العفو، ولم يأذَن في الجَهد، و أذِن في الفُضول، ولم يأذَن في الأصول..... وقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾**([4]). "([5]).

فهذا البخيل يستخدم النصوص الدينية في محاولة منه للدفاع عن بخله .

---

[1]- ضياء الصديقى ، فنية القصة فى كتاب البخلاء للجاحظ ، (عالم الفكر ــ المجلد العشرون ــ العدد الرابع ، الكويت ١٩٩٠) ص ١٧٥ .

[2]- سورة الإسراء ، الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .

[3]- سورة البقرة ، الآية (٢١٩) .

[4]- سورة الفرقان ، الآية (٦٧) .

[5]- البخلاء ، الجاحظ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

ويروي الخطيب في كتابه التطفيل قائلًا : **" قال رجل لأبيه وكان يتطفل : يا أبة ما تستحي من التطفيل ؟ قال : وَمَا أنكرت منه ؟ فَقَدْ تطفل بنو إسرائيل فَقَالُوا: ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ ([1])"([2]) .**

استخدم هذا الطفيلي ما استخدمه ذاك البخيل ، استخدم النص الديني للدفاع عن مذهبه.

وقد برع الجاحظ في مدح الشيء وذمه ، إنه يورد رسالة " أبي العاص بن عبد الوهاب"([3]) التي تذم البخل وتمدح الكرم ، ويثني برد ابن التوأم الذي يمدح البخل ويذم الكرم ([4]).

وقد يأتي الجاحظ بالنص الذي يجمع بين ثناياه مدح الشيء وذمه ؛ يقول الجاحظ : **"صَحبني محفوظٌ النّقاش من مَسجِد الجَامِع ليلاً. فلمَّا صرتُ قربَ مَنزله – وكان منزلهُ أقرب إلى مسجِد الجَامِع مِن منزلي سألني أن أبيتَ عندَه ، وقال: أين تذهبُ فِي هذا المَطر والبرد ومنزلي منزلك، وأنتَ في ظُلمَة وليسَ معك نَار وعندي لبأ لم يرَ النَّاسُ مثلَه وتمرٌ ناهيك به جَوْدة لا تصلح إلّا لَه ؛ فملتُ معه فأبطأَ سَاعة ثم جاءني بجام لبَأ وطَبق تَمر. فلمَّا مددتُ ؛ قالَ: يا أبا عثمان إنه لِبأ وغِلظه ، وهو الليلُ وركودُه ، ثمَّ ليلةُ مطرٍ ورطوبة ، وأنتَ رجلٌ قد طَعنتَ في السِّنّ. ولم تزل تشكو من الفالِج طَرفاً، وما زال الغليلُ يُسرِع إليك، وأنت في الأصل لستَ بصاحبِ عِشاء ؛ فإن أكلتَ اللبأ ولم تبَالغ كنتَ لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعَك. ثمَّ قطعتَ الأكل أَشهى ما كان إليك، وإن بالغتَ بتنَا في ليلة سَوء من الاهتمَام بأمرِك ، ولم نعدَّ لك نبيذًا ولا عسلاً. وإنما قلتُ هذا الكلام لئلا تقول غدًا: كانَ وكانَ. والله وقد وقعتُ بين نابي أسد ؛لأنّي لو لم أجئك به وقد ذَكرتُه لك قلتَ : بَخِل به وبدا له فيه ؛ وإن جئتُ به ولم أحذّرك منه ولم أذكّرك كل ما عَليك فيه ؛ قُلتَ : لم يُشفِق عليّ ولم ينصَح. فقد برئتُ إليكَ مِن الأمرين جميعًا. وإن شئتَ فأكلة**

---

[1] – سورة المائدة ، الآية (١١٤) .

[2] – الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، ص ٢٨.

[3] – هو سري من سراة البصرة ، ومن أعرق أسرها ، وهو أخو عبد المجيد الثقفي .

[4] – الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٥٤ : ١٩٤ .

ومَوتة، وإن شئتَ فبعضُ الاحتمَال ، ونومٌ على سَلامة. فما ضحكتُ قط كضَحِكي تلك الليلة"([1]).

يقوم محفوظ بدعوة الجاحظ إلى منزله ، وفي دعوته تحذير من مخاطر المطر والبرد والليل وتبيان لفضائل اللبأ ومحاسنه ؛ فيقبل الجاحظ دعوته ؛ ليكون الإبطاء ثم الحضور، يحضر محفوظ بجام لبَأ وطَبق تمر وحيلة تحافظ على اللبأ ؛ ومن ثم ينقلب الممدوح إلى مذموم؛ فأكل اللبأ هو الخطر الذي لابد أن يبتعد عنه الجاحظ.

ذلك هو النص الذي يحوي المحاسن والمساوئ ، المدح والذم .

وقد وجد مدح الشيء وذمه عند الخطيب في التطفيل ؛ فقد عقد الخطيب بابًا لمن ذم التطفيل وأصحابه وهجا به غيره ، وألحق به بابًا لمن حمد التطفيل واحتج لأهله وذكرهم بالجميل([2]).

وجاءت المناظرة في كتاب التطفيل لتثبت روح الجدل والاحتجاج في هذا المؤلف ؛ فقد أخذ الخطيب يذكر بعض المحفوظ عن الطفيليين في محاوراتهم وما أجابوا به و أوردوه في مناظرتهم([3]).

وهو يأتي بذلك النص الذي يجمع بين ثناياه مدح الشيء وذمه ؛ يقول : " **قِيلَ لبنان مَن دَخَلَ إلى طعامٍ مِن غَير أن يُدعى إليه دَخَلَ لصًا و خَرَجَ مغيرًا ، قالَ ما أكله إلا حلالاً ؛ قِيلَ له و كَيف ذلك ؟ قَالَ: أليس يَقُول صَاحب الوليمة للخبَّاز زذ في كلّ شيء ، وإذا أرادَ أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين ؛ فإنّه يجيئنا مَن نُريد ومَن لا نريد فإنا ممن لا يريد** "([4]).

يحتوي هذا النص على ذم التطفيل ومدحه ؛ في البداية يكون المتطفل لصًا مغيرًا يقع في الحرام ، وفي النهاية يصبح التطفيل حلالاً ، وتنتفي عن الطفيلي صفة الغش.

---

[1]- المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

[2]- الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، ص٢٣ : ٣٠.

[3]- المصدر السابق ، ص ٥١ : ٥٤ .

[4]- المصدر السابق ، ص ٢٨ .

لم يحتفل الخطيب البغدادي بالكلام ، وإنما احتفل بالجاحظ فطغت روح الجاحظ عليه وظهر ذلك في مؤلفه.

(٤)

الأبعـــاد النفسيـــــة

ليس لمن مُنح التوافق النفسي الذاتي ، والتوافق مع البيئة عجز أو قصور ؛ إنه من توافقه الذاتي في قدرة على مواجهة مطالب الحياة والإحساس بالسلام الداخلي ، ومن توافقه مع البيئة في صحة وأمان وإحساس بالسعادة في علاقته مع الآخرين . إن هذا الشخص هو من يتمتع بالصحة النفسية ؛ ومن ثم فإن البخيل هو من لا يتمتع بهذه الصحة.

فهم الجاحظ ذلك فأبى إلا أن يكون مولعًا " **بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية، وتبين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة** "([1]) .

إنه بالجدال والمحاور يكشف عن نفسية البخلاء ويوضح للمتلقي حقيقة أمرهم . و قصة محمد بن أبي المؤمل خير دليل على ذلك ؛ يقول الجاحظ : " **واشترى مرَّة شبُّوطة وهو ببَغداد وأخذَها فائقةً عظِيمة. وغَالى بها وارتفَع في ثمنِها. وكانَ قَد بَعُد عهدُه بأكل السَّمك وهو بَصْري لا يصبرُ عَنه. فكانَ قد أكبرَ أمر هذه السَّمكة لكثرةِ ثَمنها ولسمَنها وعِظَمها ولشِدَّة شهوته لها. فحينَ ظنَّ عند نفسه أنّه قد خلا بها وتفرَّد بأطايبها ، وحَسَر عن ذِراعيه وصَمَد صَمْدَها هجمتُ عليه ومعي "السِّدري"([2]) . فلما رآه رأى المَوت الأحمر والطَّاعون الجَارِف ورأى الحتمَ المقضيَّ ، ورأى قاصِمَة الظَّهر وأيقن بالشرِّ ، وعلِم أنه قد ابتُلى بالتّنين. فلم يُلبثه السدري حتى قوَّر السرَّة بالمبَال فاقبلَ عليَّ فقال لي: يا أبا عثمان السدري يعجِبه السُّرَر، فما فصلت الكَلمة من فيه حتى قبَض على القفا فانتزعَ الجَانبين جميعًا؛ فأقبل عليَّ فقالَ: والسدري يعجبُه الأقفاء!، فما فرَغَ من**

---

[1] – الجاحظ ، البخلاء ، المقدمة ص ٥٠ .

[2] – هو أبو نبقة محمد بن هشام ، أحد الشعراء المغمورين في عصر الجاحظ.

كلامِه إلا والسِّدري قد اجترفَ المتن كله ؛ فقالَ: يا أبا عثمان والسدري يعجِبُه المُتون، ولم يظن أن السدري يعرفُ فضيلةَ ذَنَب الشبُّوط وعذُوبةَ لحمه، وظنَّ أنه سيسلم له ، وظنَّ معرفةَ ذلك من الغَامِض. فلم يَدْر إلَّا والسدريُّ قد اكتَسَح مـــا على الوَجهين جميعًا ، ولولا أنَّ السِّدري أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدرَه وملأه غيظًا ، لقد كانَ أدرَك معه طَرَفًا ؛ لأنَّه كانَ من الأكلة ، ولكنَّ الغَيظ كانَ مِن أعوَان السِّدري عليه. فلمَّا أكلَ السدري جميعَ أطَايبها وبقِيَ هو في النَّظارة ، ولم يبقَ في يده مما كان يأمُله في تِلك السَّمكة إلَّا الغيظُ الشَّديد والغُرم الثَّقيل ظنَّ أنَّ في سَائر السَّمكة ما يشبِعُه ويشفي من قرمه . فبذلك كانَ عَزاؤه . وذلك هو الَّذي كانَ يمسك بأرمَاقه وحشَاشَات نفسه، فلما رأى السدريَّ يفري الفَرِيَّ ويلتهم التهامًا قال : يا أبا عثمان السدريُّ يعجِبُه كلُّ شيء ؛ فتولَّد الغَيظُ في جَوفِه وأقلَقته الرَّعدة ؛ فخبُثَت نفسُه فما زال يقيءُ ويسلَح ، ثم ركِبته الحمَّى. وصحَّت تَوبته وتمَّ عزمه في أن لا يؤاكل رغيبًا أبداً ولا زهيدًا ، ولا يشتَري سَمكة أبدًا رخيصةً ولا غَالية وإن أَهدوها إليه أن لا يَقبَلها ، وإن وجَدَها مطروحةً لا يمسُّها"([1]).

استطاع الجاحظ أن يظهر أمام المتلقي ذلك الاضطراب الوظيفي في شخصية ابن أبي المؤمل عندما هجم عليه السدري "الموت الأحمر والطَّاعون الجَارِف " ؛ فقد تغيرت شخصية ابن أبي المؤمل ، ولم يمنعه هذا التغير من أن تكون صلته بالواقع سليمة من الناحية الشكلية ؛ فقد استطاع أن يحافظ على مظهره ويظل سلوكه معقولاً إلى أن " تولد الغَيظُ في جَوفِه وأقلَقته الرَّعدة؛ فخبُثَت نفسُه فما زال يقيء ويسلَح ، ثم ركِبته الحمَّى".

ويظل الجاحظ مع محمد بن أبي المؤمل البخيل الذي يريد أن ينفي عن نفسه معرة الاتصاف بالبخل أمام الناس لذا فهو يحاول أن يكون في أعين الناس كريمًا ؛ فيعد الطعام ويجوده ويقوم بدعوة الأصدقاء إلى طعامه ، إنه يتكلف الكرم محاولاً كبت شعوره الحقيقي ، وتأبى نفسه إلا أن تعبر عن هذا الشعور المكبوت ، فهو يجود الطعام ويرسل إلى الأصدقاء ومع ذلك يبخل بالخبز ثم يحتج لمذهبه أمام الجاحظ الذي يحاوره ويجادله مبينًا أن البخل بالخبز فعل لا يأتيه إلا الكريم، ولا يفتأ الجاحظ يجادله حتى

[1] – الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٠٠، ١٠١ .

ينطق ذلك البخيل بما في نفسه قائلاً: " **فإنَّ الخبزَ إذا كثر على الخوَان فالفَاضِل مما يأكلون لا يسلَم من التَّلطيخ والتَّغمير ، والجرذقة الغمِرة والرقَاقة المتلطِّخة، لا أقدرُ أن أنظُر إليها ، وأستحي أيضًا من إعادتها ؛ فيذهبُ ذلك الفضلُ باطلاً، والله لا يحبُّ الباطل** "([1]).

حاور الجاحظ بخيله وجادله ونجح في بغيته ، نجح في الكشف عن نفسية البخيل المضطربة وأفعاله التي تصدر عن هذه النفسية ، إن هذا البخيل يجود الطعام ويرسل إلى الأصدقاء ، يدفعه إلى ذلك قلق داخلي عنده . إنه يخشى أن يسمه الناس بميسم البخل ؛ لذا فهو يحاول أن سبيل أهل الكرم .

وجاء الخطيب فحذا حذو الجاحظ ، لم يرض إلا بالسعي وراء الحالة النفسية للطفيليين ، وإبراز تمزقهم الداخلي وعدم توافقهم ؛ فاصطفى مرويات تبين الحالة النفسية للطفيلي وتظهر اضطرابه الوظيفي وسوء توافقه ، واضطراب نفسيته .

يروي البغدادي قائلاً : " **قِيلَ لطُفيلي مرَّة ما بالك أصفر اللون ؟ فقَالَ مِن الفترة التي بين الغضَارتين أخَاف أن يكونَ الطَّعام قَد فنَى**"([2]) .

ويقول " **حدثنا أبو مسلم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بندار القاضي بقاسان ، قَالَ قرأتُ في كتابِ أبي بخطّه قِيل لبعض الطُفيليين أتحب أبا بكر وعُمر ؟ قالَ ما ترَك الطَّعامَ في قلبي حبًا لأحد** " ([3]).

في ذين النصين ما في بخلاء الجاحظ ، فيهما هذا الاضطراب الوظيفي في الشخصية ، وذلك الاضطراب النفسي وسوء التوافق ، وفيهما القلق والخوف نتيجة شدة التعلق بالطعام .

---

[1]- الجاحظ ، البخلاء ، ص ٩٥.

[2]- الخطيب البغدادي ، التطفيل ، ص ٤٣ .

[3]- الخطيب البغدادي ، التطفيل ، ص٤٣.

(٥)

أساليب السرد الحكائي

تنوعت أساليب السرد الحكائي في بخلاء الجاحظ ، وجاء البغدادي فاعتمد على هذا التنوع وهو يؤلف في التطفيل ، ؛ فعُرضت مادة التطفيل كما عُرضت مادة البخلاء ، عُرضت بالمرويات الخبرية والحكايات والنوادر والرسائل ، واحتجت بالحديث والقرآن والشعر ، وكان مقصدها يتمثل في إظهار التطفيل وحيل الطفيليين واحتجاجاتهم وحكاياتهم ونوادرهم ، كما كان مقصدها عند الجاحظ يتمثل في إبراز البخل وحيل البخلاء واحتجاجاتهم وحكاياتهم.

وقد جاء الجاحظ في البخلاء برسالة "سهل بن هارون"([1]) في احتجاجه لمذهبه ونصرته للبخل([2]) ، وأبَى الخطيب إلا أن يأتي برسالة تحتج للتطفيل وتأخذ بيد الطفيلي إلى أن يصل إلى قمة التطفيل([3]) .

تأثر الخطيب بالجاحظ وبما ألفه الجاحظ ؛ ولم تفته عند الحديث عن التطفيل والطفيليين الإشارة إلى الجاحظ إشارة توضح التلمذة على كتب الجاحظ ، وتدين بالفضل لأهل السبق ، يروي الجاحظ قوله: " **كَانَ عندنا فتى يعشق جارية ، فكتب إِلَيْهَا يومًا جعلت فداك ، ابعثي إلي بشيء من الخبيص والخشكنانج ، فَإِن عندي قومًا من القراء ؛ فبعثت إِلَيْهِ ، فلما كَانَ اليوم الثَّانِي كتب إِلَيْهَا : جعلت فداك ، ابعثي إلي بشيء من النبيذ وَمَا يصلحه ، فَإِن عندي قومًا من القيان . فكتبت إِلَيْهِ . أبقاك**

---

[1] – سهل بن هارون بن راهبون الدستميساني من أهل نيسابور، كاتب بليغ حكيم وشاعر أديب ، ولد في مدينة قيسان بين واسط والبصرة، وفي رواية في دَسْتميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري تقديراً ، وله مصنفات كثيرة تدل على بلاغته وحكمته مثل كتاب " ثعلة و عفراء " وكتاب " النمر والثعلب " ، ترجمته في : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق وداد القاضي (فرانز شتايز شتوتغارت، الطبعة الثانية ، ١٩٩١) الجزء السادس عشر ، ص ١٨ : ٢٠ . و محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس (دار صادر . بيروت ، ١٩٧٤) المجلد الثاني ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

[2] – البخلاء ، الجاحظ ، ص ٩ : ١٦ .

[3] – الخطيب البغدادي ، التطفيل ، ص ٧٦ : ٧٩ .

اللَّه وحفظك ، رأينا الحب يَكُون فِي القلب ، فَإِذَا فشا دب فِي المفاصل ، وحبك مَا يزول من المعدة ، وأراك طفيليا تتأكل بالعشق "([1]) .

حكاية طفيلي تتضمن الطرفة والضحك تأتي على لسان الجاحظ فتأتي في كتاب الخطيب البغدادي .

ويروي أيضًا قول الجاحظ : " **قلتُ لأبي سعيد الطفيلي كم أربعة في أربعة ؟ قالَ : رغيفين وقطعة لحم** "([2]).

(٦)

الواقعيـــــة التسجيليـــــة

وقد كانت الواقعية التسجيلية من أبرز خصائص الفن الجاحظي ؛ فقد آمن الجاحظ بأن كلام " **النَّاس في طبقاتٍ كما أنَّ النَّاس أنفسَهم في طبقات** "([3]) ؛ فكلام الناس يختلف باختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومهنتهم ، هذا هو قانون علم اللغة الاجتماعي الذي توصل إليه الجاحظ.

ولكل طبقة اجتماعية ألفاظها ، ولكل بليغ ألفاظه ؛ يقول الجاحظ في الحيوان " **وأرى أن ألفِظ بألفاظِ المُتكلِمين مَادُمتُ خائضًا في صناعةِ الكلامِ مَع خواصِّ أهلِ الكلام ؛ فإنَّ ذلك أفهمُ لهم عنى ، وأخفُّ لمُؤنتهم عليّ . ولكلّ صناعةٍ ألفاظٌ قد حَصَلت لأهلها بَعدَ امتحانِ سواها ، فلم تَلزَق بِصناعتِهم إلَّا بَعدَ أن كانَت مشاكلاً بينها وبين تلك الصِّناعة . وقبيحٌ بالمتكلم أنْ يفتقر إلى ألفاظِ المتكلِّمينَ في خُطبةٍ ، أو رسالة ، أو في مخاطبةِ العوام والتّجار ، أو في مخاطبةِ أهله وعبدِه وأمته ، أو في حديثه إذا تحدثَ ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك فإنَّه من الخطأ أن يجلِبَ ألفاظ**

---

[1] – المصدر السابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

[2] – المصدر السابق ، ص ٤٥.

[3] – الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبن الخانجي ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٨) الجزء الأول ، ص٤٤.

الأعرابِ ، وألفاظَ العوام وهو في صناعة الكلامِ داخل . ولكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ صناعة شكل "([1]).

اللغة عند الجاحظ إذن تحمل طابع الحياة التي يحياها الناطقون بها ، يظهر ذلك في اختلاف الألفاظ بين لهجة اجتماعية ولهجة اجتماعية أخرى .

وقد أنشأ الجاحظ يدلل في رسالته صناعة القواد على اختلاف مستوى الكلام باختلاف مهنة المتكلم وحرفته وأن لكل مهنة ألفاظها الخاصة بها ؛ فسأل عددًا من أصحاب المهن والحرف المختلفة عن موقعة حربية شهدها مع الخليفة في بلاد الروم ، وهم : سائس وطبيب وخياط و زراع ومؤدب وصاحب حمام وكناس وشرابي وطباخ وفراش ؛ فأخذ كل واحد منهم يصف المعركة مستخدمًا ألفاظ مهنته([2]).

ويأتي كتاب البخلاء مصورًا التنوعات اللغوية ؛ فالشخصيات التي اصطفاها تحترف مهنًا مختلفة ، منهم : الملاك والتجار ورجال الفكر والأدب وأهل اللصوصية والكدية، ولكل شخصية ألفاظها المطابقة لها والمناسبة لحياتها التي تحياها ؛ ومن ثم فهو يقول : " **وإن وجَدتم في هذا الكتاب لحنًا ، أو كلامًا غيرَ مُعرَب ، ولفظًا معدولًا عن جهتِه فاعلموا أنَّا إنّما ترَكنا ذلك لأنّ الإعرابَ يبغِّض هذا الباب ، ويخرجُهُ من حدّه . إلَّا أن أحكيَ كلامًا من كلام متعاقلِي البخلاء وأشحّاء العلماء** "([3]).

و وجدت في البخلاء اللغة الشعبية لغة العامة ، يشكو صاحب الدار البخيل من أحد المستأجرين؛ فيقول : "**وإذا كثُر الدُّخول والخروجَ ، والفتحُ والإغلاقُ، والإقفالُ وجذبُ الأقفال، تهشَّمت الأبوابُ ، وتقلَّعت الرزَّات ، وإذا كثُر الصِّبيان ، وتضاعف البوش ، نُزِعت مسامير الأبواب ، وقُلِعت كلّ ضبّة، ونزعت كلّ رزَّة** "([4]).

---

[1] – الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الأسرة وهيئة قصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤) الجـزء الثالث ، ص٣٦٨ : ٣٦٩.

[2] – الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الخانجي ، القاهرة) الجزء الأول ، ص ٣٨٠: ٣٩٣ .

[3] – الجاحظ ، البخلاء ، ص ٤٠ .

[4] – المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

و جاء في البخلاء أيضًا أن " **الطبَّاخ ربَّما أتى باللون الطَّريف ، وربّما قدَّم الشَّيء الغَريب ، والعادةُ في مثل ذلك اللون أن يكونَ لطيفَ الشّخص ، صَغير الحجم ، وليسَ كالطفشِيليَّة ، ولا كالهَريسة ، ولا كالفجليَّة ، ولا كالكرنبية** "([1]).

الجاحظ ينقل في كتابه إذن أسماء أطعمة العامة .

وجاء الخطيب البغدادي فنوع في شخصياته كما نوع الجاحظ واختار شخصيات تحترف مهنًا متنوعة ، فوجد عنده النبي والصحابي والحكيم والتاجر والحاكم ورجل الفكر والأدب، و وجد في شخوصه ما وجد في شخوص الجاحظ من مطابقة الكلام للشخصية ؛ فلكل شخصية ألفاظها المناسبة لمهنتها وحياتها ، ولكل شخصية كلامها ومنطقها.

إن الخطيب يأتي ببنان ناطقًا بما يلفظ به الحائك والحجام والخياط والمكاري والدلال ؛ يقــول: "**أنبــأنا الْحُسَيْن بْن مُحَمَّد الرافقي ، نا عَلِي بْن مُحَمَّد بْن السري ، نا أَحْمَد بْن الْحَسَن المقر، قَالَ : سمعت بنانًا ، يَقُول : " لا تنادم حائكًا ، ولا حجامًا ، ولا خياطًا ، ولا مكاريًا ، ولا دلالاً ؛ فَإن الحائك يقطع يومه وكلامه : عملنا بالثوبِ بهلوكين ، وعملنا فِيهِ ثَلاثة بهاليك وأربع وخمس ، حَتَّى يعد عشر بهاليك ، وغدًا يقطع الثوب إِن شاء اللَّه هُوَ بالثلث ودرهم الثلث ودرهمين الثلث ، وثلاثة بالنصف ودرهمين بالنصف وثلاثة دراهم ، والثوب قليل العرض وَهُوَ خفيف ، وَلَمْ ندقه ، وَلَمْ نحكه ، وَهُوَ جريش ، فيومه أجمع فِي الثوب ، قطعنا وبعنا ، فلا يكن بينك وبين هَذَا الصنف عمل . وَأَمَّا الحجام ، فمنذ يقعد إِلَى أَن يقوم فإنما هُوَ فِي غيبة النَّاس: حجمنا فلانًا فأعطانا درهمًا ، وحجمنا فلانًا فأعطانًا نصف درهم ، وأخذت شعر فُلان فأعطاني نصف درهم ، وزينت فلانًا فأعطاني درهمًا ، وفلان سخي ، وفلان بخيل ..... والمكاري منذ يقعد إِلَى ، أَن يقوم : أكرينا بدانق ، أكرينا بدانقين ، أكرينا بنصف درهم ، فلا يزال أكرينا إِلَى درهم وأكثر ، ويحتاج الحمار إِلَى نصف درهم إِلَى درهم مكوك شعير، حمل قت، فيذهب النَّهار أجمع بالفضول . والخيَّاط منذ يقعد إِلَى أَن يقوم فَهُوَ فِي غيبة النَّاس وذكرهم بالرديء ، فُلان يحب فلانة ، وفلانة تحب فلانًا ،**

[1]- المصدر السابق ، ص ٦٩ .

وقطعنا لفلانة المغنية يتعشقها فُلان قطع لَهَا ثوب قصب ملحفة بعث إِلَيْهَا بثوب مروي مرتفع ، فلا يــزل فِي غيبة النَّاس منذ يقعد إِلَى أن يقوم ..... والدلال : بعنا دار فُلان بكذا ، وبعنا جارية فُلان بكذا ، وفلانة مقنعة، وفلان مقنع ، فمنذ يقعد إِلَى أَن يقوم فِي غيبة الْمُسْلِمِينَ ، وحبس المحتسب فلانًا وفلانة ، فيقطع المجلس بِهَذَا ونحوه . يا أَخِي فدتك نفسي ! لا تصحب من هَؤُلاءِ السفل أحدًا فيذهبون بجاهك عِنْدَ إخوانك وأهل الثقة من أَصْحَابك ، أصحب فدتك نفسي ، بزازًا عطارًا صيرفيًا أنماطيًا قطانًا دقاقًا صيدلانيًا . هَؤُلاءِ مثل كاتب ابْن كاتب ، قائد ابْن قائد ، وَهَذَهِ وصيتي لَك"([1]) .

إن البغدادي يدلل بهذا على اختلاف مستوى الكلام باختلاف مهنة المتكلم ؛ فلكل مهنة ألفاظها الخاصة بها أو لهجتها الحرفية .

و وجد في كتاب البغدادي ما وجد في كتب الجاحظ من لغة شعبية ، اللغة التي تنطق بها العامة ؛ يقول الخطيب : **"أنبأنا الْحُسَيْن بْن مُحَمَّد الرافقي ، نا عَلِي بْن مُحَمَّد بْن البسري ، أَخْبَرَنَا أَحْمَد بْن الْحَسَن المقري ، قَالَ : أوصى بنان رجلًا ؛ فَقَالَ : إِذَا دعيت وليمة إِن شاء اللَّه فإياك ، ثُمَّ إيّاك أَن تتأخر إِلَى آخر الوقت ، وتشاغل وتسترخي وتثاقل ، وتقول : السَّاعة، وإلى ساعة ، وإيش فاتني ؟ وبعد مَا جاء أحد ، وَمَا لي أكون من السبق ؟ وَلَمْ أكون أنا أول النَّاس ؟ ومثل هَذَا وأشباهه ، فيخطئ حظك ، ويسيء اختيارك ، ويضيع يومك ، وَهَذَا فعال الحمقى القليلي الحزم ..... أعلم يا مغفل أنك تأكل رؤوس القدور وكل شَيْء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ، ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شَيْء من أمرك مستور، موضعك واسع ، وأنت مَعَ قوم كأنّهم الدّنانير أحيى من الأبكار يعقلون إيش يأكلون ، لا تخفى عَلَيْهِم طيب الأطعمة ولذيذ الأشربة ، فالأكل مَعَ هَؤُلاءِ غنيمة وسلامة ، وتتهنأ بكل شَيْء تأكل وتشرب "**([2]) .

---

[1] – الخطيب البغدادي ، التطفيل ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

[2] – المصدر السابق ، ص ٦٦ .

وينقل الخطيب البغدادي في كتابه أسماء أطعمة العامة ؛ يقول : " **أنبأنا الْحُسَيْن بْن مُحَمَّد الرافقي ، نا عَلِي بْن مُحَمَّد بْن البسري ، نا أَحْمَد بْن الْحَسَن المقر ، قَالَ : سمعت بنانًا يَقُول : " أطيب مَا يَكُون الباذنجان فِي السكباج والحصرمية والمضيرة والكشكية ، وأطيب مَا يَكُون لحم الحمل فِي العدسية والمضيرة ، والحصرمية ، والكشكية** "([1]) .

هذه هي الواقعية ، وهذا هو حبل الجاحظ الذي اعتصم به الخطيب.

==========

النتائج

إن أدب الجاحظ يمثل قمة المرحلة الكلامية في النثر العربي القديم ، قمة توصل إليها الدكتور سعيد منصور في دراساته ، قمة استوى الجاحظ على عرشها بفضل اعتزاله وشغفه بعلم الكلام .

وقد ظهرت سمات المرحلة الكلامية في بخلاء الجاحظ واضحة جلية ؛ فظهر فيه الاحتجاج والجدل ومدح الشئ وذمه ، وظهر فيه الضحك الذي يخفف من غلواء ذاك الجدل ، وظهرت فيه الواقعية في تسجيل المحاورات والأحاديث ، وظهر فيه المحاورة الكاشفة من الملامح النفسية للشخصية .

ولم يكن الخطيب البغدادي متكلمًا ، لم يكن من أهل الاعتزال ، لم يكن يحفل بالكلام والجدال، وجاء كتابه التطفيل متأثرًا بالمرحلة الكلامية فظهر فيه ما ظهر في أدب الجاحظ .

إن من ينظر في التطفيل يجد المنهج الجاحظي في التأليف ، ويجد الاحتجاج والجدل و الضحك الواقعية التسجيلية والمناظرة والملامح النفسية للشخصية .

لقد امتد تأثير المرحلة الكلامية –التي مثلها أدب الجاحظ– إلى القرن السابع الهجري ؛ ذلك أن فن الجاحظ المتدفق بآيات الجدل والاحتجاج يصلح أن يتلمذ عليه من أراد أن يسير على النهج الجاحظي موليًا وجهه شطر أدب المرحلة الكلامية في النثر العربي.

[1] – المصدر السابق ، ص ٦٧ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- عز الدين بن الأثير الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد (دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان).
- العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان).
- ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي (دار الآفاق العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩) .
- الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الجاجري (دار المعارف ، الطبعة الثامنة).
- فدوى مالطى ، بناء النص التراثي ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥) .
- الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبن الخانجي ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٨) .
- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧) .
- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٢) .
- الخطيب البغدادي ، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، (مكتبة القدسي ، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣) .
- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الأسرة وهيئة قصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤) .
- سعيد حسين منصور ، دراسات في النثر العباسي في القرن الثالث الهجري ، (٢٠٠٦) .
- الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الخانجي ، القاهرة).

– الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وصالح السمر (مؤسسة الرسالة ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٦٦٩) .

– الجاحظ ، فنية القصة فى كتاب البخلاء ، ضياء الصديقى ، (عالم الفكر ــ المجلد العشرون ــ العدد الرابع الكويت ١٩٩٠) .

– المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (دار الكتاب العالمي) .

– ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس (دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣)

– الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران (مطبعة الأزهر ، الطبعة الأولى).

– ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (دار صادر ، بيروت) .

– الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق وداد القاضي (فرانز شتايز شتوتغارت، الطبعة الثانية ، ١٩٩١) .